مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255/E-ISSN 2588-2414
المجلد10 العدد01 – جوان 2023

OEB Univ. Publish. Co.

أساليب المعاملة الأسرية مع الشباب في ضل العولمة

Family dealing methods with young people in light of globalization

عبد الحفيظ معوشه [1]*

[1] جامعة عباس لغرور خنشلة، maoucha.abdelhafid@univ-khenchela.dz

تاريخ التسليم:19-1-2023 تاريخ التقييم: 3-2-2023تاريخ القبول:24-5-2023

الملخص

الأسرة هي أحد أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية ومن بين أهدافها الحفاظ على سيرورة المجتمع، واضطلعت الأسرة منذ القدم بمجموعة من المسؤوليات، ومن بين هذه المسؤوليات تهيئة الناشئة لمواجهة متغيرات الحياة الاجتماعية، واعتمدت في ذلك أساليب حافظت بها على كينونة المجتمع الذي تنتمي إليه، هذه الأساليب اختلفت باختلاف الأزمنة، محينة بذلك تلك الأساليب.

وفي عصرنا اليوم أصبح لزاما على الأسرة أن تتأقلم مع متغيرات حديثة جاءت بها العولمة، التي يعتبر الشباب أهم المستهدفين بها، ففي ظل عالم متغير باستمرار، اضطلعت الأسرة بأدوار جديدة، وأساليب معاملة تتلاءم وتلك المتغيرات.

الكلمات المفتاحية: الأسرة، أساليب المعاملة، الشباب، العولمة.

Abstract

The Social Institutions mean a complex, integrated set of social norms and their roles are very significant and crucial in the social upbringing process, especially the family ones that aim to make the society more reliable and less conflicted. family is regarded as one of the most influential institutions of social upbringing, overall it directs to maintain social stability.

society relies on the family in the preparation of young people to dare the changes in social life, so the family is been charged to make those young people adopted and maintain their existence and the entity of the society to which they belong..

Nowadays, the family has to adapt to modern changes due to globalization, in which young people are targeted, and it is more crucial to secure those people and fix all these negative changes. In a constantly changing world mixed with unlimited technological development, society has been threatened in its foundations and existence, so the family has assumed new roles and methods of treatment appropriate to these changes.

Keywords : family, methods of treatment, youth, globalization.

*المؤلف المراسل: عبد الحفيظ معوشه، الإيميل: maoucha.abdelhafid@univ-khenchela.z

1.مقدمة / اشكالية:

لم تكن الحكمة القائلة بأن "أولادكم ليسوا لكم، أولادكم هم أبناء الحياة، وأنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم" أكثر صدقا في أي وقت مضى مما هي عليه الآن ومستقبلا، مع تسارع التحولات الحياتية، التي لم تترك منحى من مناحي الحياة إلا وكان له نصيب منها. ويصدق هذا، أكثر ما يصدق، على الشباب. فالشباب هم الفئة الأكثر انخراطا في تسارع التحولات الحياتية هذه. ذلك أن العولمة، في مختلف أبعادها الاقتصادية والإعلامية والثقافية والاجتماعية، تستهدفه بالأساس. وأكثر من ذلك، فهم يشكلون رأسمالها البشري الرئيس. فالعولمة هي حضارة الشباب في المقام الأول، بدءا من استهلاك منتجاتها والانخراط في توجهاتها، وانتهاء بقيادة عملياتها وأنشطتها. والعولمة ترتكز على حماسة الشباب وحيويتهم وإقدامهم ومغامراتهم وتوجههم نحو آفاق المستقبل ذات الانفتاح المتزايد. فخبرة الكبار وحكمة الشيوخ، رغم ما تحظى به من احترام ومراعاة، لم تعد المرجع الرئيسي. وليس من المبالغة في شيء القول أن المرجعيات تكاد تنقلب في العديد من مناحي الحياة وأنشطتها لصالح الشباب وممارستهم وقدراتهم ومستوى معارفهم.

إن هذه الحالة غير المسبوقة تجاوزت، إلى حد بعيد، صراع الأجيال التقليدي، حيث يتجاوز جيل الشباب ما سبقه من أجيال، بعد أن كان يثبت ذاته، من خلال مجابهته والصراع معه. فجيل الشباب هو الوحيد القادر على مواكبة تسارع التحولات، وهو الوحيد الذي تشكل هذه التحولات قوام عالمه وأنشطته، في العمل والتواصل والنظرة إلى ذات والوجود، بل إنها تشكل كينونته ذاتها. والشباب، راهنا ومستقبلا، هو "الكائن في العولمة" وتحولاتها، وفرصها كما تحدياتها، وإمكاناتها كما أخطارها.

ولأن هناك حالة جديدة تشكل قطيعة مع ألف الكبار، وما نشؤوا عليه، وما يشكل نمط وجودهم ونظرتهم إليه وممارساتهم ومهاراتهم وأدواتهم، فلا بد أن ينعكس ذلك كله على العلاقات الأسرية. وهذا ما يحتاج إلى وقفة متفحصة متبصرة عنده، مما يشكل موضوع هذه الورقة البحثية.

ما هي العلاقات والتفاعلات والأدوار المنمية والمنفتحة على المستقبل، والمزودة لجيل الشباب بوسائل الحصانة النفسية والسلوكية والإنمائية في الأسرة، ومعها بقية المؤسسات المجتمعية المؤطرة لحياتهم؟

تلك قضية حيوية ومصيرية ينبغي التفكر بشأنها، في ما يتجاوز ردات الفعل، أو الاستسلام للاستسهال في المواقف والتصرفات، إذ أنها تمثل في ت قديرنا، إحدى أبرز قضايا التنشئة

المستقبلية المطروحة، ليس فقط على الأسرة، بل على جيل الكبار أيا تكن مواقعه المؤسساتية. ولكي نفعل، لا بد من استعراض العديد من أبعاد هذه القضية. وهذا ما يتيح، من ثم، التفكير بصدد أي علاقات وتفاعلات يتعين أن تقوم في الأسرة بين الوالدين وأبنائهم، بل أي استراتيجيات تنشئة يتعين أن نعتمد لإعداد الأبناء للمستقبل، مع الحفاظ على انتمائهم إلى أسرة ووطن وهوية؟

يمكن تنظيم الأفكار، في هذا الصدد، في خطوتين رئيسيتين: في خطوة أولى، نعالج خصائص العولمة والشباب وتحولات الأسرة في علاقاتها وأدوارها. وفي خطوة ثانية، نبحث في مهام الأسرة المستجدة والمستقبلية، على صعيد العلاقات والتفاعلات والتنشئة.

2. مفاهيم أساسية : لابد، قبل الخضوع في ديناميات هذه الحالة المتغيرة، من تحديدات سريعة لما نقصده بكل من الشباب والأسرة والعولمة.

1.2 الشباب:

فالمقصود بالشباب، في هذا المقام، كلا الجنسين، على حد سواء. إذ لم يعد هناك من فروق فعلية، في الإعداد للمستقبل وإدارة دفة الحياة، بين الذكور والإناث، فالبنت والصبي يتعلمان في المدارس نفسها، ويذهبان للتخصص في الجامعات نفسها، وينخرطان في سوق العمل ذاته. حتى أن هناك توحيدا في السلوكيات والتوجهات والأذواق والهويات: في المأكل والملبس وأماكن الثقافة...، والأهم من ذلك كله أن هناك تساويا متقدما في المكانة والأدوار والمبادرات.

2.2 الأسرة:

أما الأسرة المقصودة في البحث، فإنها تمر بتحولات متسارعة، في الوظائف والأدوار والمرجعيات والبنية ذاتها. هنا يتبادر إلى الذهن الحديث عن الأسرة النووية، على الطريقة الغربية. إلا أنه يجب التمييز الواضح بين الأسرة النووية العربية بصفة عامة وتلك المعروفة في الغرب. وهو أمر لم يفه علماء الاجتماع العرب، الذين اهتموا بالموضوع، حقه من التحليل والتمييز. تنطلق الأسرة النووية الغربية من تقليد راسخ هو الفردية التي تعتبر قوام بنية المجتمع. وبالتالي، فهي تتكون (حين تتكون) انطلاقا من هذه المرجعية الفردية الراسخة. في الأعم الأغلب من الحالات ليس لنفوذ وسلطة الأقارب أي وزن في بنيتها وديناميتها الحياتية. أما الأسرة العربية النووية، فهي، إلى الآن، تمر بمرحلة انتقالية، فيها الكثير من أوجه التداخل والازدواجية ما بين النموذج الغربي والنموذج التقليدي للأسرة الممتدة. فهي نووية في السكن وإدارة الحياة، إلا أنها لا زالت ممتدة في شبكة العلاقات. ويتجلى ذلك في كثافة التفاعل، فالأسر بهذا نووية ذات علاقات ممتدة، ما لا يتوفر للأسرة الغربية.

ولأن الأسرة العربية لا زالت كذلك، ولا زال تراثها العلائقي كبيرا ومؤثرا وفاعلا، فهي تعاني صعوبات الفطام النفسي مع الأبناء. وهي تقع في التجاذب الوجداني ما بين التمسك بهم من جانب، وقبول الواقع الذي يدفعهم إلى عالم العولمة الذي لا يترك لها سلطة كبيرة عليهم، من جانب آخر. (جلال، 1998، ص 109).

2 .3 العولمة:

وأما العولمة، فحديثها يطول باستمرار، وتتشعب جوانبه، تبعا لتعدد ظواهرها، إلا أنه يمكن الاكتفاء بمحطات سريعة، والوقوف عند بعض خصائصها، مما يخدم موضوعنا. العولمة هي، بكل المقاييس، حالة حضارية جديدة تمثل ما تواضع عليه المفكرون وما يعرف بعالم "ما بعد الحداثة". إنها حضارة "جعل العالم واحدا"، من خلال تهاوي حدود الزمان والمكان، وإلغاء الحدود والحواجز. يصدق ذلك على الاقتصاد وأسواق المال من خلال اتفاقيات التجارة الحرة. كما يصدق على كسر الحواجز الثقافية من خلال القنوات الفضائية التي تجعل العالم حاضرا أمام ناظري المشاهد، كي يتابع، في الآن واللحظة وهو قابع في مقعده، كل ما يجري في العالم، من خلال تحريك مفاتيح التحكم عن بعد، ويصدق ذلك أكثر، في امتداده من خلال شبكة الانترنت التي هي بصدد خلق عالم الكتروني، من سريان المعلومات وتبادلها وتداولها وتخزينها، يتجاوز العالم الواقعي الطبيعي المعروف، وبصدد الحلول محله. (حجازي ،2008، ص 54).

فعالم الشبكة التي يمكن لأي راغب، يملك الوسائل، من الحضور فيها، في نوع من المواطنة الكونية الجديدة، والتدخل والتأثير والتأثر، هذه المواطنة الكونية الجديدة هي بصدد تنميط التوجهات، من خلال مفاهيمها ولغتها ورموزها، مما يولد نظرة جديدة إلى الوجود في العالم. هذا الكون الالكتروني التواصلي يكاد يلغي المدينة، كمرجعية ومجال حيوي للتحرك والنشاط وقضاء الحاجات، فالكثير من الشباب أصبحت الشاشة هي عالمهم ومدينتهم، فأصبحوا "أبناء الواب". ولم تعد هناك حاجة للخروج إلى المدينة، أو السفر إلى أرجاء الكون للسياحة والتواصل والاطلاع، بعد أن أصبح الكون كله على شاشة جهازهم. فقد نسفت العولمة الديمومة ومرجعية التاريخ والماضي (مما كان يشكل امتياز الكبار والوالدين، ويمكنهم من فرض مرجعيتهم على الأبناء). كما أن العولمة تدير ظهرها للماضي والتاريخ، وتتوجه بإصرار قطعي نحو المستقبل، في بحث لاهث عن فرصة وإمكانات. إنها تحول التوجه من الانتماء إلى ماض وتاريخ، إلى صناعة المكانة في المستقبل، من خلال إنجازات فريدة. (حجازي، 2010، ص 54).

ومن خلال نسف العولمة للزمان والمكان، فإنها تنسف الهوية بالمعنى التراثي، كي تحل محلها هوية الإنجاز المستقبلي. وهي، إذ تفعل، تحل الفردية المنجزة محل الفردية المنتمية. فهي تحرر من أسر الماضي، كي تستفرد بالناس، وتضعهم أمام تحدي بناء كيانهم المستقبلي، مهنيا ونفسيا واجتماعيا(Beaud , 2000 , p15).

والعولمة، من خلال تقنيات المعلومات والاتصال والإعلام الفضائي التي تشكل الثالوث التقني الذي جعلها ممكنة، هي بصدد تغيير أنماط الحياة الأسرية والاجتماعية. فالعلاقة بالمدرسة والجامعة، على صعيد المكان والتسلسل الزمني (صفوف ومناهج تابعة لها)، هي بصدد الزوال، تاركة المجال لتنوعات لا تحصى من أشكال التعليم وأساليبه، ووسائل تقويمية والحصول الشهادات التي تكرس إتمام متطلباته. وقد يكون التحول في سوق العمل و وتيرته أكبر وأشد تأثيرا. فلم يعد العمل مرتبطا بحيز مكاني. كما لم يعد خاضعا، بالضرورة، للمرتبة الوظيفية وعلاقاتها الإشرافية وخطوط سلطتها المعهودة. والعولمة بصدد القضاء على روتين الحياة ما بين عمل مستقر وحياة أسرية مستقرة، ورزنامة حياة مستقرة. ذلك انه لم يعد هناك من رزنامة مضمونة ودائمة، حيث التغيير والتحول هو القاعدة.

تتصف العولمة بصفتين أساسيتين، لهما أثارهما: التسارع وانعدام اليقين. لقد بات كل شيء يتقادم بسرعة، فلا تكاد تكنولوجيا معينة تنزل إلى السوق، حتى يكون الجيل التالي لها قد أصبح جاهزا كي يحل محلها. وأصبح التسارع في كل شيء أحد أبرز سمات العولمة،ومع ذلك التسارع، تلقى الأجيال الشابة في حالة انعدام اليقين(Gassan ,2003, p15) .

والعولمة تتطلب، لكسب جدارة مواطنتيتها والمكانة فيها، القدرة على جميع الأصعدة: القدرة المعرفية، القدرة على حل المشكلات واتخاذ القرارات، القدرة على التواصل والانفتاح، القدرة على الاستفادة من طوفان المعلومات واختيار المفيد منها الذي يهدم احتياجاتنا، القدرة على التعامل مع الضغوط والتحولات وتسارعها، القدرة على تحمل انعدام اليقين والمفاجآت من كل نوع، القدرة على قراءة الواقع المتزايد في تعقيده وتداخله وتشابكه، واعتماد كل شيء فيه على كل شيء آخر، وصولا إلى صناعة الرؤى واتخاذ قرارات وإدارة دفة الحياة وبناء مكانة مهنية، القدرة على مستوى المناعة النفسية والقوة الذاتية التي لا تقتصر على مقاومة الضغوط، بل تتجاوزها إلى الحفاظ على قدرة النمو (هيوارد، 2008، ص 205).

كل ذلك يدخل في باب تحديات العولمة على صعيد المتطلبات. كما يدخل في صلب أدوار الأسرة ومؤسسات التنشئة، لبناء مختلف أبعاد هذه القدرة.

إضافة إلى الفرص المتعاظمة والمنظورات المدهشة التي تحملها العولمة، وإضافة إلى تحدياتها التي تبلغ حد الإعجاز في بعض المتطلبات، فإن للعولمة وجها آخر، هو الوجه المظلم الذي يتطلب، بدوره، تدبر وسائل مواجهته، والتحصين ضد أخطاره، مثل التلوث البيئي والفساد الذي يتخذ أبعادا غير مسبوقة، من حيث انعكاس آثاره وأضراره على فئات متعاظمة من البشر، وكذلك التلوث الإعلامي والمعلوماتي (بالتحديد بعض مواقع الانترنت)، وتسطيح الوعي، والسلخ عن الذاكرة والتاريخ والانتماء، وتفجر حروب الهوية.

3. العولمة والشباب والتحولات الأسرية:

يوحي العنوان بموقع السباب ما بين العولمة وخصائصها وتوجهاتها وتحولاتها من جهة، وبين تحول وظائف الأسرة في علاقاتها مع الشباب من جهة ثانية. وليس من المبالغة في شيء القول بأن شباب اليوم يتنافس عليهم هذان الطرفان: العولمة تشدهم إلى فرصها وطموحاتها وآفاقها المثيرة للحيوية. والأسرة تجهد للحفاظ على أبنائها الشباب وارتباطهم بها واستمرارية رعايتها لهم وتمكينهم من فرص مستقبلية، مما يفرض على الأهل انجاز فطامهم النفسي عن أبنائهم. فالعولمة، إذن، تضع الأسرة في موقع صعب تفقد معه مرجعيتها التلقائية، التي كانت تعتبر أمرا طبيعيا. هل تحتفظ بأبنائها (مما يحرمهم من فرص تحقيق ذواتهم في المستقبل)؟ أم تطلق العنان لهم مع الاستسلام للواقع وإعادة توجيه إشباع الحاجة إلى الوالدية ونفوذها المعنوي وروابطها النفسية؟

إن القواعد في علاقة الأسرة بالشباب، تتغير بسرعة مع تسارع التحولات التي تدخلها العولمة في أسلوب الحياة، على جميع الأصعدة (حجازي، 2010، ص 132).

4. انعكاسات العولمة على العلاقات بين الوالدين والأبناء:

ما هي أبرز انعكاسات هذه الحالة الحضارية على العلاقات الأسرية مع الأجيال الشابة؟ إنها قضية متعددة الجوانب يجدر التوقف عندها، وتلمس أبرز معالمها، بعد أن رسمنا صورة سريعة لهذه الحالة الحضارية الجديدة. ذلك أنها، لما حملته وما زالت تحمله من تحولات كبرى في التقنيات وأنماط الحياة، تحمل تحولات لا تقل شأنا، على صعيد علاقات الوالدين بالأبناء، قد يكون من أبرز هذه التحولات تمكين الشباب من ناحية، وتغيير المرجعية من ناحية ثانية.

صحيح أن الجيل الجديد يبدأ كيانا (على مستوى الرعاية الصحية والنفسية والتعليم والتمرس بالحياة) من حيث انتهى جيل آبائه، بما يتضمنه ذلك من تقدم وتجاوز، إلا أن العولمة حسمت الأمر، أو هي في طريقها إلى حسمه، لصالح الشباب. فهي تقوم على الشباب أساسا، حيث يشكلون جهازها البشري. فالناشطون والتنفيذيون، في مختلف مجالات التبادل والإنتاج والاستهلاك، هم من

الشباب(هيوارد، 2008، ص 205). فيكفي متابعة أسواق البورصة والتحليلات المالية، كي ندرك أن أبطالها هم الشباب ذوو القدرة الجسدية النفسية العالية على التحمل ومقاومة الضغوط. كما أن قيادات العلم والاختراعات جلهم من الشباب. وعباقرة الإنترنت والحاسوب، تشغيلا واختراعا وتطويرا، هم من الشباب. وتطالعنا الأنباء كل يوم بفتية لم يبلغوا سن المراهقة، أو لم يتجاوزوها، ينجزون اختراعات عبقرية، في مجال الحاسوب والإنترنت. يضع بعضهم برامج تتسابق عليها كبريات المؤسسات. وآخرون يخترقون أنظمة حماية مواقع أكبر المؤسسات.

إن تقنية الاتصالات وقواعد المعلومات هي، في الأساس، عالم الشباب. فإذا كان جيل الكبار المخضرمين يتعامل معها بدرجات متفاوتة من الكفاءة والمهارة، فإن جيل الشباب يتعامل معها، باعتبارها أحد مكونات وجوده الرئيسة. والعولمة، من ناحية ثانية، تشكل وحدة متكاملة مع الشباب، من خلال توجهاتها المستقبلية التي تدير الظهر للماضي والانتماء، وتنطلق في مغامرة البحث عن الفرص وحماس الاستكشاف.

والعولمة، من ناحية أخرى، هي حضارة الشباب، على مستوى الإعلام وثقافته الالكترونية. فحضور الشباب في الإعلام يتزايد باستمرار (حجازي،2008، ص 73).

نحن إذن، أمام تغيير المرجعية التي تشكل تحولا حضاريا في علاقة الأجيال بعضها ببعض. تقليديا، كان هم الجيل الناشئ أن يتنافس مع جيل الكبار، بعد أن يتخذ منه مرجعا ونموذجا، وينخرط في نفس دروبه، وصولا إلى بناء كيان ذاتي مستقل، يشكل تجاوزا لما سبقه، مع ضمان الاستمرارية. ولكن، مع العولمة، تكاد الأدوار تنقلب بشكل متزايد، وفي العديد من مناحي الحياة(جولمان،2000،ص27). ففي العديد من منها أصبح الشباب هم مرجعية الكبار، فنجد أن هؤلاء الشباب بدؤوا، وبشكل متزايد أيضا، يتخذون، من الشباب الذين أنجزوا أمورا مشهودة، مرجعية لهم. وكأن الجيل الشاب، بتوجهاته المستقبلية والإنجازية، وفي تسارع التحولات، لم يعد يحتاج إلى خبرة الكبار.

قد توضح بعض الأمثلة هذا التحول في المرجعية: فالمراهق نابغة الأسرة في مجال الحاسوب والتعامل معه، وعمل الإنجازات من خلاله. انه مرجعية الوالدين والأسرة، وحتى المدرسة وكل الكبار الذين يتلقفون إنجازاته. وقد أصبح الشباب هم المعلمين والمرشدين لذويهم، في التعامل مع التكنولوجيات الحديثة في عالمها المدهش. فحين يستعص على الكبار أمر، في التعامل مع هذه التقنيات، يكون الصغار حاضرين لنجدتهم، وحل المشكلة التقنية لهم. لقد أحل الشباب، مرجعية الشبكة WWW محل مرجعية الأهل، على صعيد التعامل مع المعلومات واستكشاف العالم،

والانفتاح على الدنيا وآفاقها المستقبلية. ولا عجب في ذلك، حيث أصبحوا، "أبناء الدوت كوم"، بعد أن كان من سبقوهم أبناء أبائهم ومعلميهم. وبات هذا التيار بصدد التصاعد والتعزيز بشكل متسارع. ومع تغير المرجعية بهذا الشكل، تتغير قواعد اللغة في العلاقة بين الأجيال، حيث أصبحت قضية صراع الأجيال التقليدية شبه بائدة.

وما يصدق على المعرفة ينطبق، بنفس القدر، على الخيارات التعليمية والمهنية المستقبلية. فلم يعد الشباب يبحثون، لدى الآباء والمعلمين، عن التوجيه المستقبلي، بل هم يجدون ما يحتاجون إليه في شبكة الانترنت وما تزخر به من فيض المعلومات، مما يفتح أمامهم العديد من الفرص المألوفة، أحيانا غير معروفة من الكبار(جلال، 1998، ص 11). ونعني بذلك كل هذه المجالات المستجدة مهنيا، وكل هذه التخصصات الوليدة، والتي لم تكن معروفة قبل عقد من الزمان.

إن شباب النخبة لا يريد أن يسير على نهج الوالدين، بل هو يطمح إلى بناء نهجه الخاص به، وينطلق في مغامرته الخاصة به، محققا، أحيانا، نجاحات متسارعة في زمن قياسي.

ويعمم تحول المرجعية من مجال المعرفة وتقنياتها، والنشاط المهني وخياراته، إلى مجالات الثقافة. فقد أصبح الأبناء هم الذين يحددون كيفية قضاء الأسرة لإجازتها، كما أصبح لهم قول ذو وزن في المشتريات والمقتنيات (حجازي، 2010، ص 74). وأصبح الكبار يجارون الشباب في المظهر والملبس والأذواق وممارسة الهوايات. وتحولت القيمة من الهالة، التي كانت تحيط بالكبار وتفضيلاتهم بصفتها المثل الأعلى للأجيال الصاعدة، إلى قيمة الشباب وحيويته وانطلاقه وانجازاته. وما كان يعده بعض الكبار تصابيا مذموما، أصبح غاية مرغوبة يبذل الجهد في سبيل الوصول إليها. ويبلغ الأمر، في بعض الأحيان، حد التحول الفعلي في المرجعية النفسية، حيث أصبح الكبار يجهدون للحصول على رضا الصغار، بعد أن كان العكس هو المعيار.

وهكذا تتحول المرتبة بين الكبار والشباب في الأسرة، كما في بقية المؤسسات المجتمعية، من علاقة فوقية إلى علاقة أفقية، ومن علاقة مرجعية ووصاية، إلى علاقة تكافؤ وشراكة وتشاور وتحاور. أصبح الكبار يسمعون كلام أبنائهم، بعد أن كان هؤلاء هم الذين يسمعون كلام الآباء. ودخلت العلاقات في عملية تذهب باتجاه مزيد من التبادل الأفقي والتوازن. وبعد أن كان الوالدان هما اللذان يرعيان الأبناء، في اتجاه تواصلي أحادي (من فوق إلى تحت)،أصبحت الرعاية متبادلة (في الاتجاهين وبشكل أفقي)، ولو أن كل طرف يرعى الآخر في جانب مختلف. لقد أدخلتنا العولمة في حالة من الديمقراطية الجديدة، مما يؤشر إلى تحول اجتماعي عميق يجري بصمت، ولكن، بشكل مؤكد، في علاقات الوالدين بالأبناء خصوصا، والعلاقات المؤسساتية والمجتمعية، بشكل عام.

وقد يكون من أبرز قضايا المرجعية وتحولاتها، مما يجب التفكير بشأنه، ذلك التحول في المرجعية التاريخية الجغرافية، التي كانت تحدد أطر الهوية والانتماء تقليديا. هناك توجه متزايد، عند جيل الشباب، تعززه العولمة، وتدفع إليه دفعا باتجاه أن يستبدل التاريخ (كتراث جماعي) بالتاريخ المستقبلي المصنوع فرديا(Beaud, 2000 , p214) وباتت الهوية بصدد التحول من الانتماء الجماعي، إلى الإنجاز الفردي. ومع هذا التحول في التاريخ ومرجعيته ودلالته، هناك تحول مواز في الجغرافيا والانتماء إلى المكان، هنا، أيضا، تشد العولمة باتجاه الانتماء إلى العالم الفسيح، كمجال حيوي. كما تشد إلى المكان الافتراضي المتمثل بالإنترنت، في موازاة المكان الواقعي الذي نشأ فيه الشاب، بديلا منه. وليس أدل على ذلك من تحول العلاقة بالمدينة، مما سلفت الإشارة إليه. فقد أصبحت الشاشة هي الحيز المكاني _الزماني الذي ينتمي إليه جيل الشباب. كما أصبح العالم الفسيح هو مجال نشاطهم وبحثهم عن فرصهم المستقبلية، وصناعتها.

ومع تحول المرجعية، على الصعيد التاريخي_ الجغرافي، تحولا بهذه الصورة، تتحول العلاقة بالأسرة تحولا متزايدا في وزنه وحجمه. كذلك تتحول العلاقة بالهوية والانتماء والذاكرة التاريخية والارتباط بالأرض والجذور. ذلك أن ربط جيل الشباب باللامكان وبالاتاريخ هو من مقومات مشروع العولمة ونجاحه. عند هذا الحد، يبدأ الجانب السلبي من الصورة بالبروز، مما يتعين النظر فيه.

ما عرضنا له من تمكن الشباب وتحول المرجعية قد لا يكون عاما، بل يقتصر على نخبة محددة، هي التي تتاح لها فرص الانطلاق والاستفادة من إنجازات العولمة. هذه النخبة، التي لا تزيد تبعا لبعض التقديرات على 20% من الشباب، تترك وراءها غالبية كبرى من الشباب الذين لا ينالون حظوظهم من العولمة، بل يبقون مهمشين، ولا ينالون إلا القدر اليسير. ولا تطرح في حالتهم مسألة التمكن، ولا احتلال المرجعية، بل هم، على العكس، يتعرضون للهدر: هدر الكفاءات وهدر الوعي. إنهم الشباب المعرضون للبطالة رغم تعليمهم العالي. وهم، بذلك، يبقون كفاءة مهدورة من ناحية، ويظلون في حالة اتكال على الأسرة من ناحية ثانية. ونظرا لهذا فإنهم يتعرضون لازمة بناء كيان ذاتي يعانون آثارها هم وأسرهم على حد سواء. (Beaud, 2000, p214).

إن ملف الشباب العبء يستحق دراسة قائمة بذاتها. فهو ملف الغبن المفروض حيث يحترق الشباب، بدل أن ينطلق بحيويته وراء تحقيق طموحاته. وقد يدفع، بدلا من تحقيقها وصناعتها، إلى أمل الخلاص السحري والعيش على الأحلام، من خلال الغرق في اللهو (من مثل الانخراط في الإدمان على مشاهدة مباريات كرة القدم التي توفر بديلا حلميا عن حماس تحقيق الذات). وقد ينزلق إلى وضعية الشباب المعرض للخطر: خطر الانجراف في الحركات المتطرفة على اختلافها، فهذا

الشباب هو الأكثر عرضة لأن يكون وقودا لمثل هذه الحركات. (هيوارد، 2008، ص 205). ويتفاقم الأمر نظرا لكبر كتلة الشباب هذه، وعدم توفر فرص الانغراس الاجتماعي لها. كما يتفاقم نظرا لأفول مرحلة النضالات الوطنية التي كان الشباب يجد فيها وسيلة للانغراس وتحقيق الذات، من خلال المشاركة في صناعة المصير الوطني. وقد تكون هذه الحالة هي الأحق بالتفكير وبذل الجهود لإيجاد المخارج الملائمة لها، وصولا إلى حسن توظيف هذه الطاقات الحية.

5. علاقات الأسرة ومهامها المستقبلية:

من البديهي أن تكون كل هذه التحولات الحاصلة في نمط الحياة وعلى كل الأصعدة، بما فيها تحولات الزمان والمكان والأدوار والمرجعيات، حاملة تغييرات أساسية في العلاقات الأسرية ومهامها المستقبلية. وعلى عكس ما قد يتبادر إلى ذهن البعض من زوال مكانة الأسرة وأدوارها، فإنها مدعوة، أكثر من أي وقت مضى، ربما للقيام بوظائف حيوية تتيح للشباب الانطلاق في العالم الرحيب، وخوض غمار تحدياته، والتعامل مع تسارع تطور إمكاناته المستقبلية. فإذا كانت الأسرة الغربية (خصوصا على صعيد العلاقات الوالدية) تسير نحو الانحصار إلى مستويات شبه شكلية، فإن الأسرة المسلمة لا زالت، وستظل في المستقبل المنظور، ذات حضور ووزن كبيرين، ولو تغيرت العلاقات والأدوار.

ليست المكانة موضع تساؤل، بل إن الأدوار والوظائف هما المدعوتان إلى التغير. تلك قضية لابد من التوافق عليها. وما على الأهل، بالتالي، سوى الاطمئنان إلى مكانتهم، ومواجهة هذا القلق الوجودي المشروع الذي يعيشونه، وهو يرون مواقعهم التقليدية تتحول. هذا القلق الوجودي هو مؤشر صحي، شرط أن ينفتح على فرصة التغيير الذاتي لمواكبة متطلبات العصر والمستقبل. إذ، هناك نقلة ذاتية يتعين على الأهل إجراءها بثقة وانفتاح، كي تكون فرصة لنموهم الذاتي، هم أنفسهم، على صعيد علاقاتهم الوالدية بأبنائهم الشباب. وهناك بالتوازي، مهام جديدة يتعين على الأسرة القيام بمتطلباتها، لإعداد أولادها، منذ الصغر، للأدوار الشبابية المستقبلية القادرة على التعامل المتمكن مع العولمة، في فرصها وتحدياتها.

5. 1 التحول في العلاقات:

هناك عدد من التحولات، التي يفرضها الواقع المتغير ذاته، يجب التوافق معها، وبذل الجهد الواعي والمنتظم لإنجازها، على صعيد العلاقات، فيما يتجاوز تبدل المرجعيات. هذا التبدل، بحد ذاته، يفرض، كما رأينا، التحول، من العلاقات الفوقية ذات المنحى المفرط في املاءاته وتوجيهاته في اتصال أحادي هابط (من الوالدين كمرجعية إلى الأبناء كأتباع)، إلى علاقات تشاورية تبادلية

أميل إلى الاتصال في الاتجاهين. ويتعين أن يصبح كل من الوالدين والأبناء فاعلا ومنفعلا، مبادرا ومتجاوبا، مرسلا ومستقبلا (Gassan ,2003, p5) .

إننا بصدد العلاقات الأفقية التي تتضمن مقدارا من التكافؤ، وتبادل الأدوار في المرجعية، تبعا للحالة، هي ليست مسألة تخل عن مكانة، أو تنازل عن مشروعية وحقوق، بل فرصة للنماء، من خلال الانفتاح والاستيعاب والتقبل المتبادل، والاعتراف المتبادل بالمكانة والقيمة. فهي ترشيد للعلاقات ، تنمي الطرفين، ليخرج كل طرف منهما، وهو يشعر أنه بخير والآخر بخير.

ومع التحول نحو التشاور والتبادل والتكافؤ، يتعين تكثيف الحوار، والتواصل، وانتهاز كل فرصة ممكنة للاعتناء النفسي المتبادل منه، وذلك بتعزيز التفكير الإيجابي، ورؤية الفرص والإمكانات للنمو الذاتي والوجودي(حجازي، 1997، ص 67).

إن تكثيف التواصل النفسي بين الوالدين والشباب أصبح ضرورة كبرى، مع انخراط هؤلاء في عالم الانترنت ومرجعيته، من ناحية، ومع تزايد قلق الأهل الوجودي من الإحساس بإفلات أبنائهم منهم (أو ابتعادهم عنهم على الأقل)، من الناحية الثانية. أصبحت شبكة الانترنت، ومعها الهاتف الذكي، تستغرق وقتا متزايدا من جيل الشباب، بشكل يكاد يهيمن على كيان الكثير منهم، ويدفع بعضهم إلى حالة من الإدمان الفعلي. فقد اخذ إدمان الانترنت يحل محل إدمان التلفزيون الذي كان لفترة قريبة مثار شكوى الأهل. وأبرز ما تحمله هذه الحالة الجديدة هو ذلك الانسلاخ عن العالم الواقعي والتعايش المتزايد مع العالم الافتراضي. هذا واقع لا مجال للتنكر له أو لرفضه، بل يتعين حسن التعامل معه. إن العالم الافتراضي الذي يحل محل العالم الواقعي، والعلاقات الافتراضية التي تحل بشكل متزايد محل العلاقات الواقعية، يحملان خطر حالة من الفراغ الوجودي على الصعيد النفسي، بسبب العزلة مع الشاشة عن العالم الواقعي. هنا يأتي دور تكثيف التواصل والحوار، للحفاظ على التوازن النفسي المطلوب، ولمد الشباب بحرارة اللقاء الإنساني الفعلي الذي وحده يمكن أن يحفظ صحته النفسية. إن اللقاء والحوار الثري، نفسيا ووجدانيا، هما الزاد الذي يجعل الإبحار في العالم الافتراضي فرصة للتعامل مع الدنيا الواسعة وآفاقها الرحبة.

لا يقصد بتكثيف الحوار التجسس على الشباب وهو يبحر في عالم الانترنت. فالحوار المكثف يهدف، في المقام الأول، إلى إقامة صلات من نوعية جديدة ومميزة: تواكب وتوفر الحضور النفسي، وتتفهم وتساند، وتتعلم وتتبادل الخبرات المعرفية والوجودية.

يندرج هذا الحوار المكثف ضمن دور جديد وحيوي للأهل، في علاقاتهم النامية بالجيل الصاعد فهو يوفر للشباب ذلك الانتماء المتين إلى جو أسري آمن ومتقبل ويشكل له قاعدة انطلاق

متينة لمجابهة تحديات الحياة. والمطلوب، هنا، تأمين الإحساس بتوفر خط دفاع وجودي منيع وموثوق، من العلاقة المتينة مع الوالدين والأهل عموما، يمد بالثقة الداخلية بقدرته على خوض مغامرة المستقبل وعالمه المدهش، من دون التعرض لخطر الضياع. ذلك أن خطر الضياع والاقتلاع من جذور الانتماء، والإحساس بأن الإنسان مستفرد، وبالتالي معرض للخطر ومستضعف، يشكلان أحد أكبر أخطار العولمة التي يجابهها الشباب. وبالتالي، فإن وظيفة الأهل، في توفير نوع من خط الدفاع الاستراتيجي الوجودي، تكاد تصبح من أهم الوظائف الراهنة والمستقبلية للأسرة(جلال، 1998، ص 18).

وهكذا، فإن الحماية المباشرة، التي تتخذ أحيانا طابع الحصار ليست هي المجدية، أو حتى الممكنة، بل إن توفر الثقة بوجود قاعدة أسرية يمكن الارتكاز عليها والانطلاق منها، هو الذي يضمن حسن المسار والمصير للشباب، في خوض معركة العولمة. انطلاقا من هذا الإحساس، فإن الشباب سوف يبادر ويقدم، ويتجرأ، وبالتالي، يجابه وينجز ويظفر وظهره محمي. إن هذا النمط من العلاقة والتفاعل أبعد ما يكون عن حالتين تشكلان إعاقة لانطلاقة الشباب.تتمثل الأولى في نفض اليد منهم ومن مصيرهم، كما يشيع في الأسرة الغربية، وجعلهم يجابهون أخطار الوجود من دون خط دفاع موثوق. أما الثانية، فهي الحالة الشائعة في ثقافتنا، والتي تتناقض مع الأولى، إذ تتمثل في الحماية الزائدة، والتدخل والتوجيه المفرط، والإصرار على فرض المرجعية، وصولا إلى حالات التملك التي لا تعترف للأبناء بكيان مستقل، أو يمكن أن يكون مستقلا ومغايرا، بنظر الوالدين وتوقعاتهم. إنها حالة تعذر انجاز الوالدين للفطام النفسي في علاقتهما بأبنائهم. وهي، بالطبع، حالة لا تتمتع بالصحة النفسية بالقدر الكافي، إضافة إلى أنها تعوق الأولاد في بنائهم لمشروعهم الوجودي(جولمان ،2000، ص15).

إن العولمة، أكثر من أي حالة حضارية أخرى، تفرض على الأهل الارتقاء إلى جدارة الوالدية، من حيث الأدوار والوظائف، وتتجاوز الوضعيات المريحة المتمثلة بالسيطرة والتملك والإملاء، أو جعل الأولاد مجرد أدوات لتحقيق الرغبات الذاتية وسيادة النرجسية. إنها تفرض إعادة النظر في اتجاه التغيير، نحو مزيد من النضج النفسي والرشد العلائقي.

هذا التغيير، مع ما يعنيه من توفير خط الدفاع الاستراتيجي الموثوق والآمن والذي يطلق الانفتاح والإقدام، هو، ذاته، المطلوب في التعامل مع مآزق الشباب في أخذ فرصة من العولمة، ذلك الشباب المهمش عن مواقع الإنتاج والانجاز وتحقيق الذات، من خلال البطالة، وهدر الكفاءات. وينبغي للأهل، في هذا المقام، أن يرتقوا إلى مستوى السند المعنوي المشجع والمعترف، الذي يعوض

تنكر الدنيا لحق الشباب بأخذ نصيبه من الفرص. ويمكنهم بذلك أن يحافظوا على المواقف الإيجابية من صعوبات الحياة، وعلى التفكير الإيجابي في التعامل معها، والذي يتيح وحده الخروج من المأزق، إذ يضاعف من الدافعية لاقتراح الحلول وصناعة الفرص. أما غرق الأهل في الشكوى وتعميم الأسس والاستسلام للعجز، فإنه يعرض الشباب للمآزق الوجودية، التي لن تجد لها حلا إلا في السلوكات الكارثية التي تقضي على احتمالات الفرص.

5. 2. مهام الأسرة في بناء القدرة المستقبلية للأبناء (الاقتدار المستقبلي):

لا يقتصر دور الأسرة على مواكبة التحولات والتعامل معها، على صعيد العلاقات الوالدية _ الشبابية، بل إن العولمة تفرض عليها، أكثر من أي وقت مضى، مهاما حيوية تتمثل في إعداد الأجيال الصاعدة للتعامل مع المستقبل (Levy, 1994, p21). ذلك أنه لم يعد يكفي، في مواجهة تحديات العولمة المتعاظمة، الاقتصار على الدور الاستجابي الذي يكيف مع التغيرات المتسارعة. كما أنه لم يعد يكفي الاستمرار في إعادة إنتاج نظام العلاقات الأسرية التقليدية، مع ما يطرأ عليها من تطورات بطيئة. فكما أن العولمة هي بصدد دفع الدول باتجاه إعادة الهيكلة على الصعيد الاقتصادي والسياسي، مما يكثر الحديث بشأنه في الأدبيات، وصولا إلى ولوج حلقة اقتصاد العولمة وأخذ الفرص منه واحتلال المكانة المقبولة فيه، فإنها تتطلب إعادة هيكلة شبه كاملة لسياسات التنشئة ذاتها، باعتبارها إعدادا للأدوار المستقبلية. فالتنشئة المستقبلية لم تعد عملية روتينية، بل إنها تحتاج إلى تفكير وتدبر وتخطيط. ففي الوقت الذي يبدو فيه أن الأسرة بصدد تراجع أدوارها ومكانتها، نجد أنفسنا بإزاء ما يشبه الثورة في وظائف الأسرة، على صعيد مهام تنشئة الأجيال الصاعدة.

وهنا يطرح السؤال حول هذه المهام المستجدة والحيوية في الإعداد للمستقبل. ما هي هذه المهام؟ وكيف يمكن تحديدها بشيء من الثقة، في حالة انعدام اليقين المميز لتحولات العولمة؟

إن الفحص المتبصر لهذه التحولات، يظهر ثوابت جديدة تشكل القاعدة التي يقوم عليها تسارع التغيير. وقد يكون من أبرزها، بداهة بناء القدرة على التعامل الفاعل مع هذا التسارع، مما يتمثل في المرونة والانفتاح على الجديد. وفي ما يتجاوز هذا البعد، تتلخص الثوابت الجديدة في أمر أساسي هو بناء القدرة والاقتدار المتمثل في تنمية الكفاءة العامة للشخصية الكلية، بحيث تتجاوز نجومية الدرجات المدرسية (التي يتم التركيز عليها)، وصولا إلى الإعداد لنجومية النجاح في الحياة أو بكلمة أشمل، النجاح في مشروع الوجود.

5. 2. 1. الكفاءة المعرفية الانجازية :

يعد بناء القدرة المعرفية، وتأسيس ثقافة الإنجاز، من ثوابت العولمة، في ما يتجاوز كل تحولاتها الممكنة. وستقوم سوق العمل، وقبلها الدراسة، على مبدأ التنافس الشديد والمفتوح الذي ينسف كل حماية (Gassan ,2003, p36). والصمود، في هذا التنافس، يرتكز، في المقام الأول، على القدرة المعرفية القابلة للتوظيف في منجزات إنتاجية وخدماتية مميزة ورخيصة الكلفة. لقد تحولت الثروة، أو هي بصدد التحول المتزايد، من الموارد الأولية الناضبة إلى الموارد المعرفية المتعاظمة على الدوام. وعلى عكس تلك الموارد الأولية التي هي هبة الطبيعة، فإن المعرفة القادرة هي نتاج الجهد الذهني وحده. وهي، بهذا، لا تمنح، بل تبنى ونحصل عليها. وقد أصبح معروفا أن النخبوية قد تحولت من الحسب والنسب، كمعيار، إلى مقدار امتلاك القدرات المعرفية وتوظيفها في الإنجازات المذهلة.

صحيح أن المؤسسات التعليمية هي الوكالات الرسمية لبناء المعرفة، إلا أن عملية هذا البناء تبدأ في الأسرة، ومنذ الطفولة. ويستمر دور الأسرة نشطا بالتعاون والتكامل مع المؤسسات التعليمية ويكفي التذكير بأن نمو الذكاء والقدرات الذهنية، والنجاح التحصيلي من بعده، مرتبطان مباشرة بمقدار الثراء الثقافي للجو الأسري، وبمقدار غنى التواصل والتفاعل والرعاية والتنشيط والتعزيز، الذي يلقاه الطفل من والديه، منذ بداية حياته. بعد هذا الإثراء الأولي الذي يفتح الشهية المعرفية، ويجعل التحصيل الدراسي نشاطا طبيعيا مكملا للنشاط في البيت، تحتل الأسرة، ونوعية التفاعل النفسي والمعرفي واللغوي بين الطفل ووالديه، مكانة هامة في التأسيس لنمو القدرات المعرفية اللاحقة. فالحوار والشرح والتفاهم والتعليل، وربط التوجيهات بالأسباب والمسببات، والإجابة عن تساؤلات الطفل بشكل صحيح، تبنى كلها القدرة على التعامل الذهني مع العالم وظواهره وأحداثه، وتمكن من السيطرة المعرفية على الذات والواقع، وهو ما يمهد، لنجاح العمليات المعرفية الرسمية في المدرسة لاحقا، ويجعل الطفل والناشئ قادرين على التفكير المنطقي والتحليلي، وربط المقدمات بالنتائج والحلول المنهجية للمشكلات، مما يشكل مقومات التفكير العلمي.

لقد أصبح دور الأسرة حيويا على هذا الصعيد، أكثر من أي وقت مضى. ذلك أن القدرة المعرفية في سن الشباب، ودخول سوق العمل، يتأسس منذ المحاولات الأولى في الطفولة لبناء المشروع المعرفي الذي يشكل أحد المشاريع الكبرى في نمو الطفل، وصولا إلى سيطرته على العالم وإدارته لذاته (Levy1994, p117).

ومع بناء القدرة المعرفية، يقع على الأسرة دور لا يقل أهمية بحال، يتمثل في بناء ثقافة الإنجاز التي يقوم عليها، راهنا ومستقبلا، لضمان المكانة واخذ النصيب من الفرص، بل صناعتها.

إن التحول متصاعد عالميا، بسبب الانفتاح والتنافس القائمين على القدرات المعرفية، من ثقافة الحياة القائمة على النسب والثروة، وثقافة الاستهلاك، إلى ثقافة الإنجاز. فما من أمة صنعت لها مكانة في التاريخ، ماضيا وحاضرا، إلا من خلال إنجازاتها المميزة على هذا الصعيد أو ذاك. فثقافة الإنجاز تعني بناء الهوية الذاتية والمكانة انطلاقا من القدرة على الإنتاج، حيث يتكون لدى الإنسان، منذ طفولته، مفهوم عن ذاته، باعتباره كائنا منجزا (مدرسيا تحصيلا في البداية، ثم إنتاجا فيما بعد). يبنى هذا المفهوم عن الذات المنجزة في الأسرة أساسا، ومنذ الطفولة: الولد الذي ينجز في لعبه، ورسوماته، ثم في القيام بحاجاته، وبعدها في تحصيله، وصولا إلى دخوله سوق العمل.

5. 2. 2 الكفاءة النفسية _ العاطفية :

يمكن اختصارها في المفهوم النمائي للصحة النفسية. وهناك من لخصها في مفهوم الذكاء الانفعالي، كما يعرضه دانيال جولمان في كتاباته الواسعة الانتشار. وكلاهما يتأسس في الأسرة، وخبرات الطفولة التي تتميز بالرعاية والتقبل والاعتراف والتوفر وكثافة التواصل والتفاعل، مما أثبتته، بشكل لا جدال فيه، الدراسات الحديثة، وذات النتائج المذهلة، حول العلاقات الأولية بين الطفل وأمه منذ الحمل، وبينه وبين الوالدين والجو الأسري الذي يوفر الطمأنينة القاعدية، فيما بعد. هذه التجربة الأولية هي التي تضع أسس الصحة النفسية، وقبول الذات والوفاق معها والثقة بها وبإمكاناتها، وقبول الآخر والانفتاح عليه والتواصل الإيجابي معه، وصولا إلى الانفتاح على الدنيا بثقة وتفاؤل وإيجابية. فالطمأنينة القاعدية، التي تشكل مرتكز الصحة النفسية وتساعد لاحقا على تحمل ضغوط الحياة والاستفادة من تجاربها، هي صنيعة العلاقات الأسرية في المقام الأول. ويأتي دور بقية المؤسسات المعنية بالتنشئة، كي يكملها ويعززها لاحقا. لكن لا يمكن لهذا الدور أن يحل كليا محل الأسرة.

لا تفرض العولمة، وتحدياتها، ومتطلبات النجاح الحياتي في عصرنا، القدرة المعرفية وحدها، بل تتطلب، بالتوازي معها وبشكل يكملها، توفر المتانة النفسية وقوة بنية الشخصية، وذلك على أكثر من مستوى. وإن ضغوط الحياة، في عصر العولمة، غير مسبوقة في شدتها ووطأتها، بسبب من التنافسية المتعاظمة، وانعدام الضمانات الوظيفية الدائمة والمستقرة واحتمالات انعدام الدخل الثابت والمضمون، الناجم عن تفاوت فرص العمل وتوفرها، مع ما يحمل ذلك من إرباكات في إدارة الحياة وتأمين متطلباتها. ويضاف إلى ذلك متطلبات الأداء المهني المتزايد على صعيد الجهد والاقتدار. وبالتوازي مع سوق العمل وشدائدها، هناك حالة التحولات المتسارعة، وانعدام اليقين، والحاجة الدائمة للتكيف مع المستجدات والاستعداد لها. وكذلك حالة الفراغ الوجودي، بسبب حلول الواقع الافتراضي

المتزايد، والتفاعل والتواصل، محل العلاقات الإنسانية المباشرة، بما فيها من عاطفة ومساندة وطمأنينة واستئناس. يتطلب كل ذلك درجات عالية من المناعة النفسية، والقدرة على تحمل الإحباط والشدائد، مما لا يتوفر إلا للأصحاء نفسيا، خصوصا وأن العولمة، في الكثير من الأحوال، تحرم المرء من نظم الدعم والمساندة والحماية العلائقية والعاطفية التقليدية (Gassan ,2003, p45).

لكن لا يقتصر الأمر على مقاومة الضغوط والشدائد، بل يتعداه، على صعيد متطلبات الصحة النفسية، إلى التوظيف الكامل للطاقات والإمكانات والقدرة على حسن استغلال الفرص. وهو ما يقتضي التمتع بالاستقلالية، والقدرة على حسن إدارة الذات، ونجاع حل المشكلات وصواب اتخاذ القرارات، إضافة إلى المرونة النفسية والذهنية، وإطلاق الدافعية الذاتية لتحقيق الإنجازات المطلوبة. ويتوج كل ذلك التفكير الإيجابي، والمواقف الإيجابية من الحياة وتحدياتها، وصولا إلى تحويلها إلى فرص. وكذلك توفر القدرات الخلاقة القادرة على صناعة فرص التقدم والنماء، وليس مجرد القدرة على الاستفادة من المتوفر منها.

نحن، هنا، بصدد الصحة النفسية النمائية، بصدد الإنسان الناشط بكامل طاقاته، والفاعل على مستوى مختلف وظائفه المعرفية والعاطفية والاجتماعية، والقادر على النماء المستدام. تلك هي أعلى مراحل الصحة النفسية(حجازي ،2008، ص 87)، وهنا يتجلى دور الأسرة في الإعداد للكفاءة للحياة. ذلك أن أسس الصحة النفسية النمائية توضع في العلاقات الأولية، وفي المناخ الأسري اللذين يتصفان، بالحرارة والقبول والاعتراف والرعاية والتوفر وكثافة التفاعلات الإيجابية، مما لا يمكن تعويضه لاحقا.

5. 2. 3. الكفاءة الاجتماعية _ التواصلية:

وهي تلك القدرة على إدارة الحياة الاجتماعية، بمختلف أصعدتها، بحيث يكتسب الفرد القبول والتقدير، ويحتل عضوية الجماعات الأساسية بشكل يتصف بالمكانة الجيدة كحد أدني، ووصولا إلى احتلال أدوار قيادية فاعلة في عمليات النشاط الاجتماعي. إن هذه الكفاءة، التي بدأت أدبيات الصحة النفسية تركز عليها الأنظار باعتبارها من مقومات الاندماج الأساسي في المجتمع، تتضمن الحساسية لمشاعر الآخرين، وتفهم عالمهم الذاتي، وخبراتهم الوجدانية والوجودية، والتعاطف معهم، وتبادل المساندة والرعاية(جلال، 1998، ص 117). كما تتضمن القدرة على إدارة العلاقات والتفاعلات مع الآخرين، مما يعزز شبكة العلاقات، ويعلي المكانة، ويقوي مشاعر الالتزام. وهي تغطي، في مقام ثالث، التكيف النشط، بدءا من القدرة على التصرف الملائم، والتوافق مع ما يجب التمسك به، وصولا إلى مقاومة وتغيير ما يتعين تغييره بأساليب بناءة.

وإن هذه الكفاءة، بهذه المواصفات، لم تكن ضرورية في أي وقت مضى، كما هي الحال في عصر العولمة الذي يتطلب المبادرة والقدرة على التفاعل والتعاون والتشارك والقيادة، كما يتضمن القدرة على المجابهة وتوكيد الذات، في عالم الانفتاح والتنافس المتصاعد، وارتباط كل شيء بآخر، في حالة متصاعدة من الاعتماد والتكامل المتبادلين. ولا تقتصر الكفاءة الاجتماعية على التفاعلات ضمن الدوائر الجماعية المحلية والوطنية، بل أصبحت تتعداها للكفاءة في مجال التفاعلات عبر الوطنية وعبر الثقافية. والدراسة، كما العمل، أصبحت تتطلب مهارات تواصل وتفاهم وتعاون ومجابهة مع أشخاص متزايدين في العدد من ثقافات مختلفة كليا عن الثقافة الوطنية المحلية، وذوي نظرات للكيان والعالم متباينة أشد التباين، وعائدين إلى مرجعيات قد تبلغ حد التناقض مع المرجعيات الوطنية المألوفة. بهذه الكفاءة وحدها، على الصعيد المحلي والعالمي، يمكن أخذ النصيب من الفرص، وبناء المكانة، وصناعة المستقبل، في عصر العولمة. وإن دور الأسرة تأسيسي في تنمية الكفاءة الاجتماعية، وتأتي أدوار بقية المؤسسات المجتمعية، كي ترقيها لاحقا. وإذا لم تؤسس الكفاءة الاجتماعية من خلال شبكة العلاقات والتفاعلات الأسرية وما توفره من دلالة ومكانة وقبول وتقدير وتنشيط لآليات العلاقة الفطرية خلال سنوات الطفولة الحاسمة في الأسرة، فإنه يتعذر ضمان بنائها اللاحق بالمستوى المطلوب من الفاعلية والجدارة، وهنا، أيضا، يبرز دور الأسرة حيويا، أكثر من أي وقت مضى، لبناء الكفاءة للحياة المستقبلية.

5. 2. 4. الانتماء وحصانة الهوية:

تطرح العولمة مسألة الانتماء بحدة خاصة. ذلك أن أحد أبرز الانتقادات الموجهة إليها يتمثل في أنها تقضي على الهويات الوطنية، حيث تحاول إتباع المنخرطين فيها لثقافتها الخاصة التي تتعارض مع الثقافات الوطنية، والتي تسلخ المرء عن ذاكرته وتاريخه وتراثه. ولهذا، فان المعركة الثقافية تشكل إحدى المعارك الكبرى في صراع القوى، حيث تعلو الأصوات لمقاومة ثقافة التسطيح وأمركة العالم. ومن فرط وطأة محاولة الإتباع وإذابة الثقافات الوطنية، بدأت تبرز، بشكل متزايد، ردود حروب الهوية، وما تتصف به من عنف وتعصب، والدعوات إلى الانغلاق على الذات، وما يرافقها من مجازر وتصفيات دموية وتطهير عرقي أو ديني.

من هنا، تبرز الحاجة إلى تحصين الجيل الصاعد المؤهل لدخول العولمة بثقافة وذاكرة وتاريخ وانتماء متين وهوية وطنية راسخة. فذلك يحفظه من الضياع، ويساعده على الانفتاح على العالمية دون أن يتعرض للاستفراد، وفقدان الجذور، بما يحمله من خطر الاغتراب(حجازي، 1997، ص 44). ذلك أن الأفراد، كالمجتمعات، هم أقرب ما يكونون إلى الأنظمة الحية في

تفاعلهم مع محيطها الحيوي (الايكولوجي). وبمقدار ما تكون نواة هذه الأنظمة وبنيتها الداخلية متينة، فإنها تنفتح من موضع الثقة بالحفاظ على الكيان. ويكون هذا الانفتاح فرصة للنماء، أما إذا فقدت النواة المتمثلة بالمرجعية الثقافية والتاريخية، فإنها تصبح نظاما مفرط الانفتاح، وبالتالي، معرضا للتبدد في النظام الايكولوجي الأكبر والذوبان فيه، مع ما يحمله ذلك من فقدان للكيان. وبالمقابل، فإن الإفراط في انغلاق النظام الحيوي على ذاته (على شكل تطرف في التعصب والجمود ورفض التفاعل والتبادل)، يهدده بأن يضمحل ويتهمش، وقد يموت.

من هنا، يأتي دور الأسرة الحيوي، ويأتي، من بعدها ومعها، دور مؤسسات التنشئة الأخرى، في إعداد أنظمة مفتوحة تتصف بالمرونة، انطلاقا من نواة راسخة من الانتماء والهوية. بذلك يكون أمام الفرد، كما أمام المجتمع، فرصة للنماء وتعزيز المكانة. والواقع أن غرس بذور الانتماء والهوية الوطنية يبدأ في الأسرة، ومنذ سنوات العمر الأولى: بدءا بحمل اسم وانتماء إلى أسرة، ثم إلى عائلة ومحيط ومجتمع ووطن، وانتهاء بالانتماء إلى تاريخ وثقافة، من خلال تمثل كل رموزهما وبطولاتهما وأعيادهما ومناسباتهما وانجازاتهما. وكما يبني الطفل هويته النفسية الشخصية انطلاقا من علاقته بالوالدين والأسرة، فإنه يتمثل هويته الوطنية انطلاقا من المناخ الثقافي والوطني المميز للأسرة وبقية مؤسسات التنشئة. وبذلك وحده، يتمكن من التفاعل والانفتاح والتبادل والإثراء الذاتي القائم على مرجعية راسخة. وبذلك، يمكن الاطمئنان إلى انطلاقه في آفاق العالمية الرحبة. فنحن بصدد مشروع كياني مستقبلي، ينبغي للأسرة أن تنجزه.

5. 2. 5. الحصانة القيمية :

تذهب التقارير التربوية، الخاصة بالقرن الحادي والعشرين، إلى أن معركة القيم ستكون في مكان متقدم من أولوياتها. وتجعل العولمة هذه المعركة والإعداد لها أكثر إلحاحا للعديد من الأسباب. فهناك، من ناحية، الأوجه المظلمة للعولمة التي يتعين تحصين الأجيال الصاعدة ضد آثارها. ومن أبرزها: التلوث البيئي، والتلوث السلوكي الأخطر منه، مثل الفساد والرشوة والسمسرة والصفقات المالية المغامرة التي تدفع شعوب بأكملها فواتيرها من مدخراتها ورزقها وعرقها. ويضاف إلى ذلك استفحال المافيا الدولية التي بدأت تصبح خارج السيطرة، لأنها أقوى من السلطات الرسمية أحيانا، وكذلك لأنها عالية التنظيم، قادرة أن تلتف على الرقابة والقوانين، وتمتلك جيوشها وخبراءها، وتوظف، أو تستدرج مجموعة من كبار المسؤولين الرسميين ممن يفترض بهم محاربتها، ناهيك بانتشار شبكاتها عالميا(جولمان،2000، ص43). وهناك تفشي المخدرات وتبييض الأموال والاتجار بالبشر والأطفال. كلها آفات أخذت أعلى المراجع الدولية تدق ناقوس الخطر داعية للعمل

على لجمها، وهي ما يتعين تحصين الأجيال الصاعدة ضد آثارها الفتاكة، من خلال التزود بنظام قيمي سلوكي متين.

6. خاتمة:

نرى أن دور الأسرة يتعاظم في الإعداد للعولمة والمستقبل، عكس ما يبدو عليه الأمر ظاهريا من انحصار. إن ما ينحصر هو أنماط تقليدية من العلاقات والأدوار والوظائف كانت تخدم مرحلة أفلت من تاريخ المجتمع. ونحن، على صعيد الأسرة والمؤسسات الاجتماعية المعنية بالناشئة والشباب، بإزاء إعادة تعريف للأدوار والعلاقات، وإعادة تحديد الوظائف والمهام والأهداف. وهو ما يشكل تحديا غير مسبوق للوالدية وجدارتها، التي لم تعد تحصيل حاصل، ولم تعد قضية روتينية تتمثل في السير على خطى الأولين. لقد جعلت العولمة مهام الوالدية أكبر وأخطر وأصعب. وجعلت القيام بها مسألة تحتاج إلى درجات عالية من الجدارة والتبصر والتدبر. إننا بصدد تجديد فعلي لبنية الأسرة وكيانها ومهامها. وليس من خيار آخر ممكن سوى قبول التحدي، والإسراع إلى النهوض بأعبائه، حيث تسارع التحولات، في عصر العولمة، لم يعد يترك مجالا لتريث أو تأجيل، أو تقاعس، وخصوصا لترك الأمور على عواهنها.

7. قائمة المراجع:

- أمين جلال، العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي. أبحاث مؤتمر العولمة والهوية الثقافية، 12–16 أفريل. (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1998).
- جولمان دانيال، الذكاء العاطفي (ترجمة ليلى الجمالي).سلسلة عالم المعرفة، رقم 262 سنة 2000. (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. 2000).
- حجازي مصطفى رعاية الطفولة من أجل القرن 21. سلسلة الدراسات الاجتماعية والعالمية. (المنامة. البحرين. 1997).
- حجازي مصطفى، الشباب الخليجي والمستقبل. المركز الثقافي العربي(بيروت. لبنان. 2008).

- حجازي مصطفى علم النفس والعولمة.المركز الثقافي العربي. (الدار البيضاء. المغرب. 2010).
- غاردنر هيوارد، خمسة عقول من أجل السمستقبل. (ترجمة هلا الخطيب). مكتبة العبيكان. (الرياض. السعودية. 2008)
- *Beaud , Michel.Le Basculement du Monde –de la terre , des hommes, et de capitalisme. (Paris: La Découverte. 2000.*)
- *Levy, Pierre L intelligence Collective: pour une Anthropologie du Cyberspace. (Paris: La Découverte 1994.*)
- *Salameh, Gassan Le Siècle Américain(. Paris: Le plon2003.*)